

من وراء البحار

أدباء الألمان في الوقت الحاضر

الأخرى نجد الأدباء هم الذين يخلقون الآراء التي يعتنقها الناس ، في حين نجد الكتاب في ألمانيا يسرون وراء الآراء التي يخلقها الجمهور ؛ إذ نجد بين كتاب الألمان من أقدم على تغيير ، لا رأيته السياسي فحسب ، بل أسلوبه ونظريته إلى الأدب والحياة أيضاً ، ولم يتغير مرة بل ثلاث مرات أو أربع مرات . ونجد أمثلة كثيرة على ذلك بين كتاب الألمان من جرهات هادثان إلى هاتز كانوسا . ولقد كانت هذه الظاهرة من العلامات السيئة في الأدب الألماني . وقد اعتاد الجمهور الألماني ألا ينتظر من أدبائه الاستمرار على فكرة والمحافظة عليها . وصار الأدب مجرد شعور ذاتي حتى لدى الأدباء الذين يصوبون مؤلفاتهم في قالب أخلاقي أو سياسي . فاذا كان هتلر قد استولى على السلطة فليس ذنب الكتاب أنهم لم يمتثلوا للصمت بما يدل على الرضا ، إذ الواقع أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد داخل ألمانيا ، بل إنهم انقلبوا أنصاراً للاشتراكية الوطنية ، ورأوا فيها اتجاهًا أدبيًا

يرى هاينريخ فيشر ، كاتب المقال الهام الذي يبحث في أدباء الألمان في الوقت الحاضر ، وهو مقال نشر في مجلة « هورايزن » الإنجليزية في عدد يناير ١٩٤٧ ، أن منظر ألمانيا في الوقت الحاضر ، وهو منظر دمار وانحلال ، يدل دلالة بارزة على انحلال التفكير الانساني فيها ، وهو نتيجة ست سنوات بل اثنتي عشرة سنة قضتها ألمانيا في حرب ورعب . لذلك كانت الحياة الأدبية فيها الآن حياة فوضى غريبة ، حتى إنه لم يعد من السهل أن يعرف أكان الكتاب في ألمانيا شركاء لهتلر أم هم ضحية له . لذلك يجب لكي يكون المرء فكرة عامة عن هذه الحال . أن يحاول تبين خصائص الحياة العقلية في ألمانيا .

من أول مميزات هذه الحياة ، وهي التي تبعت الدهشة لدى الأجنبي الذي يريد استكشاف الآداب الألمانية ، صفة تشاهد حتى قبل عهد هتلر ، وهي أن الأدباء الألمان قابلون للتحويل عن آرائهم يوماً بعد يوم . ففي البلاد

معسكر ضخّم لأسرى الحرب ، والألمان هم الأسرى داخل البلاد وخارجها . ولكن لألمانيا اليوم ميزة ليست لغيرها من البلاد ، وهى أنه لم يبق لها إلا أن تبتدى حياتها من البداية . « ومعنى ذلك فى عالم الأدب أن تعود إلى الحقيقة ، وأن تخرج من تصوفها وعزلتها وأن تسلك طريق المسئولية الشخصية ، بعيدة عن الأعذار التى تنتحلها .

ويمكن أن يقال إن بعض الأدباء عرفوا واجبه ؛ فالروائى أرنست فيشر ، الذى كان معادياً لنظام هتلر واعتقل فى إحدى المعسكرات ، أصدر من بضعة أشهر نداء للشبيبة الألمانية يدعوهم فيه إلى مواجهة الحقائق . ولكن الأصوات التى ارتفعت فى هذا الاتجاه كانت قليلة ، وظل السواد الأعظم من الأدباء والموسيقين ورجال المسرح ملتزمين الصمت ، فى الأشهر الأولى بعد التسليم ينتظرون فى قلق ما يحل بهم من عقوبة .

على أن هذه العقوبة لم توقع إلا فى النادر . وعلى ذلك أخذ أبرز الكتاب فى عهد هتلر يتجهون نحو الصحف التى سمحت قوات الاحتلال بظهورها ، وابتدأت مقالاتهم بأنواع من الاعتذارات وبأقبح الذم فى نظام هتلر ، وبأكبر المبالغات فى تمجيد المجتازا وروسيا وأمريكا . ومن الأمثلة البارزة على ذلك

ناجحاً يستطيع الأديب أن يسير فى تياره فيصل إلى الشهرة فى أقرب وقت . وقد يكون من المغالاة أن نقول إن هذا المظهر لم يكن إلا نوعاً من انتهاز الفرصة ؛ إذ الواقع أن الاشتراكية الوطنية كانت توافق جانباً من تفكير الأديب الألمانى الحديث ، وهو إدارة ظهره عمداً لحقيقة الحياة . فقد أخذ الكتاب الألمان منذ عهد ستيفن جورج ينفضلون عن العالم الذى يحيط بهم ، ويخلون إلى أنفسهم . وإن الأسماء الكبيرة فى عالم الأدب فى الأربعين سنة الأخيرة لتدل على ذلك ؛ فكارل ريلكى وفراتز كفكا والشاعرة الكبيرة لاسكار شويلر ، والشاعر النمساوى جورج تراكل ، كلها أسماء تبرهن على صحة هذا القول . وهذه الرغبة النفسية تظهر فى الكتاب حتى عهد هتلر ، وقد لحظها الناقد الألمانى ياكوب فاسرمان .

فاذا ما سقط النظام الذى أقامه هتلر ، كان على عالم الأدب أن يجيب على أسئلة عدة : كيف يقابل الأدباء الحرية التى ردت إليهم ؟ وكيف يواجهون الظروف الجديدة ؟ وماذا يعملون فى سبيل الاتجاهات الأدبية ؟ وإنها لفرصة كبيرة وصفها الكاتب كارل بارت بقوله : « إن ألمانيا هى الآن

ولكن المثل الأكبر هذا الميل ،
الذى ظهر فجأة فى الكتاب الألمانين
لتسويغ عملهم ، هو ما دار من نقاش
حول موقف توماس مان .

لم يكن توماس مان بعيداً عن
أخطار العزلة الفكرية التى كانت من
صيب الكتاب الألمان قبل أن يتسلم
هتلر زمام السلطة ، وكانت هذه العزلة
وعاءً من الاتجاه إلى تقليد الأدب
الكلاسيكى . ولكن توماس مان صبت
عليه المحن فى عهد هتلر ، فتعلم من هذه
المحن الاعراب عن خواطره بقوة
والاتجاه نحو الحقيقة . وكان ذلك السبب
فى أن إذاعاته للألمان كانت مليئة
بالحياة فتأثر بها كل من سمعها ، وإن
لم يكن لها الاصدى ضعيف عند الكتاب
الألمان ، ولعلمهم كانوا ينتظرون منه
أن يمتطى جوداً أشهب ، ويدخل إلى
برلين منتصراً على أثر جنود الحلفاء ،
ليفتح صدره للأدباء الألمان ويعانقهم
بعد القطيعة .

ولقد نشر كاتب من كتاب
القصص التاريخية اسمه وولتر فون مولو
رسالة مفتوحة الى توماس مان فى الصحف
الألمانية ، دعاه فيها إلى العودة فى
أسرع وقت إلى ألمانيا ليتزعم الحركة
الأدبية . فرد عليه توماس مان رافضاً
هذا العرض . وقام حول رفضه جدل

أن إميل ياننجز الممثل المشهور فى عهد
الفوهرر أعلن أن جدته يهودية ولدت
فى روسيا . وأن دكتور كارل شارينج ،
الذى كان من أوفى المذيعين لجوبلز ،
كتب رسالة إلى الاذاعة البريطانية
يطلب إليها عملاً . وأن أيرك إيرمير
تقدم لخدمه الأمريكان فى بافاريا فعين
محافظاً لاحدى المدن ، فما كان من
إحدى الصحف الألمانية إلا أن نشرت
له رسالة كتبها فى سنة ١٩٤٢ يفخر
فيها بعلاقاته مع جوبلز وجورنج . وقد
كتب أحد الكتاب الذين اشتهروا
فى عصر النازى ، وهو أوتوفليك ، نداء
إلى الأدباء الألمان يعتذر فيه عن
ضعفهم بأنهم اتبعوا مثل جيتته ،
والفيلسوف الصينى ثاو ، الذى قال
إنه يجب على الانسان أن ينحن ولا
ينكسر بل عليه أن يعيش .

ولقد أدت هذه المحاولة التى أقدم
عليها الأدباء الألمان بلا خجل إلى
مواقف عجيبة ؛ فقد أعلن فى إحدى
الصحف الألمانية أن روايات هانز فلادا
قد سحبت من المكتبة العامة ببرلين
لما فيها من اتجاهات نازية ، وظهر فى العدد
نفسه من الصحيفة حديث مع هانز فلادا
يعلن فيه أنه شرع يضع مؤلفاً ضخماً يستنكر
فيه مبادئ النازية ، إذ يرى أن من
واجبه أن يربى الشبيبة الألمانية !

عنيف . ومن أهم ما جاء في رسالة توماس مان قوله :

« لقد سرني طبعاً أن ألمانيا تريد عودتي ، ولكنني أجد في هذه الدعوة شيئاً مقلقاً وبشيراً ، ولا أقول غير منطقي أو ظالم ، أو على الأقل لم يدرس جيداً . فانك تعلم أنه من العسير نصح ألمانيا ومساعدتها اليوم بعد الكارثة التي لا مخرج منها ، والتي جرّها الشعب الألماني على نفسه . إني هرم وقد أثرت الأزمنة المثيرة التي عشنا فيها في عضلات قلبي . فهل أستطيع أن أساعد مساعدة جدية إذا جئت إلى تلك البلاد بجسدي ؟ وهل أستطيع أن أقبل من عشرة أولئك الذين سقطوا إلى الأعماق ؟ إني أعتقد أن ذلك مشكوك فيه . هل يمكن محو هذه السنوات الاثنتي عشرة وما حدث فيها من الذاكرة كأن هذه السنوات لم تكن ؟ إنك يا سيدي لم تعرف قط ما يكتنف قلب المنفى من ضيق ، وما يشعر به من مخاوف وعزلة وما يتوقعه من مفاجآت ، ذلك الرجل الذي لا مأوى له ، لقد مضت على أزمان كنت فيها حائقاً للمزايا التي ظلت أنت تتمتع بها ، وبدلاً من ذلك إنكار للتضامن بيننا . ولو حدث في سداً الأمر أن كل رجل وامرأة له اسم في عالم الفكر بألمانيا قد ثار ورفض تلك الذلة ،

ولو حدث أن كل مفكر انضم إلى إضراب عام وهجر ألمانيا ، لكان لذلك شيء من التأثير في البلاد وخارج البلاد . ولو أننا جميعاً عملنا ذلك لما كان ما حدث من بعد لقد كان من وسائل العذاب العديدة لدينا أن رأينا الفكر الألماني والفن الألماني كيف يتطوعان لخدمة الدمار . فكيف يظن امرؤ أنه يقوم بخدمة شريفة إذا عهد إليه في تصوير رسوم لروايات فاجنر كي تمثل هذه الروايات في بايرويت في عهد هتلر ؟ إنها لحالة عجيبة يخيل لي أنها تدل على عيون عمياء وقلوب من حجر ؛ إذ نرى رجلاً يسافر إلى الحجر أو أية بلاد أوربية أخرى ، وفي جيبه جواز موقوع عليه من جوبلز ليلقى بعض المحاضرات الشيقة ، كي تكون دعاية ثقافية للدول الهتلرية . لا أقول إن هذا العمل فضيحة ، ولكنني أقول فقط إنني لا أفهمه وأشعر بالارتباك عندما أفكر أنني قد أقابل مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى لست أفهم لماذا لم تمنع رواية « فيدليو » ، من تلحين بهوفن في هذه السنوات الاثنتي عشرة في ألمانيا . لقد كانت هذه الرواية جديرة بافتتاح الموسم في يوم تحرر الألمان لأنفسهم . ومن الفضيحة أن تكون هذه الرواية أخرجت قبل ذلك

تقدمت بي حتى صرت لا أستطيع أن
أخذ لغة جديدة فحسب ، بل لأنى
كذلك كنت أعرف أن لمؤلفاتى مكانها
المتواضع فى تاريخ الأدب الألمانى . . .
إن ألمانيا لم تمنحنى قط ساعات راحة .
لقد كنت أتعذب معكم ، ولم أكن
مبالغاً حين كتبت فى رسالتى إلى جامعة
بون على القلق والحزن والعذاب الذى
حاق بأفكارى وبحياتى جميعها ، ولم
تنج منها ساعة من ساعات السنوات
الماضية فى حياتى . وهذه هى الحن التى
كان على أن أقاومها فى عنف لأشقى
طريقى بوصفى فنانا خالقا » .

أثارت هذه الرسالة جدلاً عنيفاً
بين الكتاب الألمان . ولا ريب فى أن
مسألة المهاجرين وعودتهم جديرة
بالمناقشة . ولكن الكتاب الذين
ردوا على هذه الرسالة كانوا من أولئك
الذين لعبوا دوراً فى العهد الزائل ،
وأرادوا أن يحتفظوا بمركزهم فى العهد
الحاضر . من بينهم أديب اسمه فرانك
تيس اخترع عبارة الهجرة الداخلية
التي لجأ إليها هو وأمثاله فى عهد
هتلر ؛ فهم على قوله كانوا مهاجرين
سريين . هذا مع أن كتبهم كانت
تدر عليهم الأموال والشهرة . قد
يكون هذا الوصف منطقياً على
بعضهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

إخراجاً جيداً ووجدت مغنيين يغنون
أناشيدها ، وعازفين يعزفون نغماتها ،
وجمهوراً يصغى إليها . ما أقسى
الرجال الذين حضروا رواية « فيدليو »
فى ألمانيا الخاضعة لملر ، دون أن يغطوا
وجوههم بأيديهم ودون أن يتركوا
دار الأوبرا مسرعين متألين . . .
إنى لتواق لمعرفة كل ما أستطيع معرفته
عما يحدث فى ألمانيا بأية وسيلة ، فأنبأوها
تستمرعى عيني قبل أية أنباء أخرى
من العالم الواسع ، ذلك العالم الذى
أخذ يشعر بنفسه دون أن يفكر كثيراً
فى ألمانيا ، وفى هذا ما يدلنى يوماً بعد
يوم على الرباط الذى لا ينقسم والذى
يصطنى بتلك البلاد القديمة التى طردتنى
من عداد أبنائها . هل أنا أمريكى
ومواطن من مواطنى العالم ؟ أجل ! هذا
ما صرت إليه ، ولكن كيف أنكر
الجذور التى نبتت منها ؟ وبالرغم من
الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين
جروا وراء آلهة غريبة كيف أنكر
التقاليد الألمانية التى كانت فيها نشأة
عملى وحياتى ؟

« لن أعدل عن اعتبار نفسى كاتباً
ألمانياً . ولقد كنت أسمى على اللغة
الألمانية حتى فى السنوات التى كانت
كتبى فيها لا ترى ضوء الشمس إلا فى
ثوب انجليزى . وليس ذلك لأن السن

لا ينطبق عليه هذا الوصف . والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة
 فاذا كان واجب الأدباء الألمان « على تلال الرخام » .
 أن يتصلوا بالحقيقة ، وقليل منهم
 ويا للأسف يعمدون إلى هذا الاتهام ،
 فان هنالك طريقين حاول بهما هؤلاء
 القلائل الاتصال بالحقيقة . أول هذين
 الطريقين الارتباط عمداً بالحياة العقلية
 في غرب أوروبا . والطريق الثاني العودة
 عودة حقيقية إلى التقاليد الألمانية ،
 لا اتخاذ هذه التقاليد على أنها زى جديد
 كما فعلوا في عهد هتلر . ونجد في
 أما كن مختلفة في ألمانيا وبين المهاجرين
 من اتبعوا هذين الطريقين . ففي عهد
 هتلر نجد داخل ألمانيا الكتاب
 الكاثوليك هم الذين أزالوا الغشاوة
 عن أعينهم . ومن أشهر هؤلاء تيودور
 هيكز الذي توفي في العام الماضي ، وقد
 ترجم كتب كبير جارد وكردنيال
 نيومان وبيلولك وفرانسيس تومسون ،
 ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل كان كاتباً
 من الطبقة الأولى بين كتاب المقالات .
 وتعتبر كتبه « ما هو الانسان ؟ » عن
 بول كلودل ، وكتابه الأخير : « عن الجبال »
 مثلاً صحيحاً لما سمي بالهجرة الداخلية .
 ومن بين أقرانه نجد المؤلف الروائي
 جرتروود فون لفورت والشاعر شنيدر
 والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة
 « على تلال الرخام » .
 ولقد حافظ الشاعر ديتريش
 بونهيفر على نزعة أدت به إلى الاتهام
 بالخيانة في سنة ١٩٤٣ ، ثم قتل في
 المعسكر الذي اعتقل فيه قبل أن تصله
 جيوش الحلفاء .
 أما المهاجرون فمنهم ، فضلاً عن
 توماس مان الذي عاد إليه شبابه ،
 ماكس هيرمان نيس الذي مات بلندن
 في غارة جوية سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك
 مجلدين من الشعر فيهما وصف للريف
 الانجليزي ومخاوف الغارات والوحدة
 التي يجدها المهاجر .
 ومن الكتاب المهاجرين برتولد
 فرتل الذي كتب بالألمانية عن الحياة
 في إنجلترا وأمريكا ، ويبرت درخت
 الشاعر ، والكاتب المسرحي انريجو بك
 الذي يعيش في سويسرا ، وقد
 جمع بين وصف المناظر الألمانية
 والأسبانية .
 فهل تجتمع هذه القوات المختلفة
 فتدب الحياة في الأدب الألماني من
 جديد ؟ كل ذلك سيتوقف على ظروف
 خارجية وعلى أحوال ألمانيا الاجتماعية ،
 وعلى تعقل لجنة المراقبة للحلفاء .